الآثار كمنتوج سياحي

أ. عبد الحق معزوز: قسم الآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الجزائر

الملخص:
يشكل التراث الأثري أحد الأعمدة الأساسية لدراسة شخصية الإنسان والتعرف على محيطه الاجتماعي والغوص في بيئته الثقافية والاقتصادية. وقد شكلت هذه التراكمات الثقافية عبر مختلف العصور نتاجا حضاريا ساهمت في إبداعه عبقرية الإنسان وقريحته المبدعة تجسدت في قالب مادي يعكس ماضيه الحضاري .

Résumé:
Le patrimoine archéologique demeure l'un des fondements essentiels pour la connaissance et la perception de la nature humaine dans toute sa complexité . Par ailleurs , il nous aide à percevoir l'environnement immédiat et toute sa composante culturelle et économique .
Cet héritage culturel et civilisationnel accumulé au fil des siècles n'est en fait qu'une vitrine nous renseignant sur le génie humain dans dans son adaptation , ainsi que ses multiples créations pétries dans l'art de la matière . Il demeure un indice révélateur de son riche passé.
Ce patrimoine archéologique est sans aucun doute depuis l'évolution sociale et économique de l'humanité le maillon fort pour l'attrait des peuples à leurs propres connaissances d'une part , et d'autrepart , pour raviver et fructufier le domaine touristique dans le monde

مقدمة:

يشكل التراث الأثري أحد الأعمدة الرئيسة، لدراسة حضارة الإنسان وشخصيته، والتعرف على محيطه السياسي والاقتصادي، والاطلاع على بيئته الثقافية الاجتماعية، وهو إلى جانب ذلك (أي التراث) عبارة عن تراكمات حضارية وثقافية، تشكلت على مر السنين وتعاقب الأزمنة نتيجة للتفاعلات الفكرية للإنسان والمجتمع. أبدعتها عبقرية الإنسان وجسدتها أنامله في قالب مادي سواء فني أو معماري، صارت في وقتنا الحاضر بمثابة مرآة تعكس مستوى الشعوب ومدى تطور الأمم في العصور الماضية.

وتعد المخلفات الأثرية، باعتبارها شواهد مادية غير قابلة للتزييف؛ كالمباني والعمائر على اختلاف أغراضها، والآثار المنقولة بتعدد وظائفها وتنوع مواد صناعتها، بمثابة وعاء حضاري يعكس بصدق ثقافة المجتمعات، ويشخص حضارتها الفكرية والمادية على المستوى المحلي وهو في الوقت ذاته يتسم ببعده العالمي، تشترك فيه الإنسانية جمعاء انطلاقا من عالمية الإنتاج أو المنتوج الحضاري وعدم اعترافه بالحدود الإقليمية الضيقة المنحصرة بين خطوط وهمية.

- التراث الأثري كمنتوج سياحي بين الماضي والحاضر

لو عدنا إلى الماضي البعيد، وتمعنا بعين فاحصة مدققة، في ما كتبه المؤرخون والمحدثون القدماء في هذا الموضوع بالذات، لوجدنا أن فكرة التسيح أو المتعة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني ودلالات، مصدرها نابع عن كل موضوع غريب عن النظر لم تألفه العين، أو هو قديم عن العصر لم يعد له مكان ضمن الاستعمالات الحالية أو تعرض للتغيير والتطوير في أحسن الأحوال، إنما هي في الحقيقة، فكرة لها جذور تاريخية عريقة ومتأصلة في النفس البشرية.

ومع أننا لا نعرف بالضبط مدى توغل هذه الفكرة في النفس ومدى تجذرها في التاريخ، إلا أننا نستطيع القول بأن الفكرة قديمة جدا، وتكون ،ربما، قد ظهرت حسب ما هو متعارف عليه الآن من خلال بعض الكتابات في بلاد مصر وبالتحديد في العصر الفرعوني. حيث تشير بعض الكتابات والدراسات الحديثة أن المصريين القدماء، هم أول من اهتم بجمع التحف ووضعها في المعابد للتعبد أولا، ثم للتمتع ثانيا[1]. وكذلك فعل الإغريق من بعدهم حينما جعلوا من معابدهم مكانا للتعبد والعرض والمتعة[2].

---

(1) محمد عبد القادر محمد وسمية حسن إبراهيم ، فن المتاحف ، القاهرة دار المعارف، (د.ت)صفحات 9-11. وانظر كذلك علي حملاوي ، مذكرة تدرس لطلبة علم الآثار بمعهد الآثار جامعة الجزائر ص.11

(2) المرجع نفسه ،ص9. وانظر كذلك محمد سيف النصر أبو الفتوح،مقدمة في علم الحفائر وفن النحت ،ص84.

وتشير بعض المصادر التاريخية القديمة، أن الملك تحتمص الثاني كان حينما يخرج في حروبه وكلما كان يعود منتصرا ضد أعدائه، إلا وجمع معه كل ما عثر عليه من نباتات غريبة عن بلاد مصر، ثم يقوم بغرسها في حديقة قصره ويفتحها للزوار للمشاهدة والتمتع[1]، وهو ما يعني أن فكرة التسيح والتمتع بكل ما هو غريب وجميل ونادر، ولو كانت بسيطة، فإن غريزة الجمع والعرض والمتعة كانت موجودة منذ القديم، وربما ارتبط وجودها بوجود هذا المخلوق.

وقد كان الملك الكلداني نبوخذ نصر (604-562ق.م) من المولعين بجمع التحف والبقايا الأثرية، وكان هذا الملك قد خصص قاعة في جناح قصره لعرض هذه النوادر. وقد أدت الحفريات التي أجراها الإنجليزي السير ليونارد وولي في مدينة أور ببلاد الرافدين إلى اكتشاف قاعة تعج بالقطع الأثرية التي يعود تاريخها إلى العهد الآشوري . وإلى جانبها لوحة نقشت عليها كتابة مسمارية هي عبارة عن قائمة جرد بأسما القطع المحفوظة في القاعة[2]

وفي عام 290 ق.م فتح ما يصح أن نسميه متحفا بمدينة الإسكندرية الذي تحول في عهد بطليموس الأول إلى معهد أو دار علم. وقد كانت هذه الدار مشكلة من منتزه، وأروقة، وقاعات للبحث، وقاعة الطعام، وإقامة للعلماء الذين كانوا يتقاضون رواتب شهرية فضلا عن العطاء الذي كان يجزل عليهم من طرف الملك[3]. ورغم ذلك فقد كان دور هذه المعارض أو قاعات العرض محدودا جدا لا يتعدى حاشية الحاكم وأقاربهم، ولم يكن له تأثير أو دور يذكر في تثقيف وتعليم مختلف شرائح المجتمع العريض.

ومع مجيء العصر الروماني تغيرت هذه النظرة الضيقة للتراث الأثري ، حيث استفاد هؤلاء كثيرا من الحروب التي خاضوها ضد الشعوب الأخرى، فعادت عليهم بالثراء والمال الوافر، فمكنتهم غزواتهم المتعددة من نهب وسلب ثروات الشعوب والأمم المهزومة، كما فعل الدكتاتور سلا الذي نهب روائع أثينا. وبقدر ما تنامت ثروات ملوك وأعيان وقادة الرومان بقدر ما كان اهتمامهم بجمع التحف والآثار يزداد ويتنامى أكثر

(1) عياد موسى العوامي ، مقدمة في علم المتاحف،ص14،15.
(2) وولي سير ليونارد، مدخل إلى علم الآثار، ترجمة حسن الباشا مراجعة عبد المنعم أبو بكر القاهرة،وزارة التربية والتعليم، 1956.
(3) علي رضوان فن المتاحف، مذكرة تدرس لطلاب علم الآثار بكلية الآثار المصرية، ص.1.

من ذي قبل، حتى صارت بيوتات وقصور الأباطرة والأثرياء ، تعج بما ندر وغرب من تحف وآثار تهش له الأعين وتتلذذ له الأنفس، حينئذ بدأت تطفو على الشعور فكرة جديدة، هي في الحقيقة فكرة قديمة لكنها لم تكن تحمل في طياتها ذلك المفهوم الجديد، الذي يتمثل في البعد الحضاري والثقافي الذي تحمله هذه الثروة من الآثار، الذي شحنها به (أي التراث) القائد الروماني أجريبا (Agrippa)، والذي نستشفه من قول بلاين، على ما كان قد فهمه هذا الأخير في إحدى الخطب العامة التي كان قد ألقاها هذا القائد في ساحة عامة أمام الجمهور، والتي أخذ يحث فيها الذين يكنزون الآثار في قصورهم بفتح هذه الكنوز للجمهور العريض. ومن بين ما كانت ترمي إليه هذه الخطبة، هو ضرورة تثقيف الشعب وتعليمه عن طريق عرض الصور الفنية عليه، للرفع من مستواه الفكري، وغرس الذوق والحس الجمالي في نفوس هذا الشعب[1]. وذلك من خلال فتح كنوز القصور في وجهه وجعلها مادة تعليمية وتثقيفية، ووسيلة ترفيهية.

كما قام الإمبراطور يوليوس قيصر، ولأول مرة في التاريخ البشري، بمنع وتحريم جمع التحف وتخزينها في القصور، وأعلنها ملكا للدولة الرومانية، وكان يوليوس أول من قام بإهداء مجموعته الخاصة إلى المعابد. وهكذا سن الرومان بفضل اجتهادات القائد أجريبا وقرارات يوليوس قيصر، لأول مرة ،سنة حميدة تملت في وضع أسلوب جديد في التعامل مع التراث الأثري بهدف المحافظة عليه. ويقوم هذا الأسلوب الجديد على إشاعة ملكية هذا التراث بين كافة سكان الإمبراطورية الرومانية، وجعله في خدمة الشعب الروماني، يمكن استغلاله لتثقيف وتعليم مختلف الشرائح الاجتماعية، كما يمكن استغلاله أيضا للنزهة والمتعة وعاملا مساعدا لغرس الذوق الفني السليم وتهذيب المشاعر في نفوس الناس.

وقد أدت النهضة الصناعية في أروبا مع بداية القرن السابع عشر إلى تزايد الاهتمام بالآثار وتوسيع دائرة هذا الإهتمام ليشمل المتاحف والمجموعات المتحفية، وذلك من خلال نشاط القناصلة الغربيين في العالم القديم، وسعيهم الحثي لجمع كل ما هم نادر وقديم من تحف وآثار، مما أدى إلى ظهور التنقيبات الأثرية المنظمة، دعمتها ظهور مؤسسات متحفية حريصة على الحصول على عينات من التحف الأثرية لتزيين وإثراء مجموعاتها.

(1) محمد سيف النصر أبو الفتوح، المرجع السابق ص50

ويعزى هذا التأسيس إلى عوامل[1] عدة كان لها الأثر الإيجابي في تغيير الذهنيات وتحويل الاهتمام نحو التراث نوجزها في العناصر الآتية:

1- الشوق والحنين إلى التراث القديم وتعلق الإنسان بكل ما هو ذاهب إلى الزوال.

2- النجاح الذي أحرزته في ذلك الوقت الطبقة الشغيلة في تحديد ساعات العمل وحصولهم على عطل سنوية وأسبوعية منحت للعمال الوقت للتفسح والتنزه في أماكن ترفيهية ومن بينها المتاحف والمواقع الأثرية .

3- الاختراعات الحديثة والتطور العلمي الذي بدل نمط حياة الإنسان وغير نظرته لكثير من الأشياء .

4- بداية ظهور ما اصبح يعرف في ذلك الوقت النشاط السياحي الذي أخذ ينتعش بفعل العوامل السابقة الذكر.

5- انتشار المعارض الأثرية المؤقتة التي أصبحت منتشرة في كبريات المدن الأوروبية وكانت تختار فيها أجمل التحف الأثرية.

6 - نمو الإحساس الفني لدى النخب في المجتمعات الغربية وحرصهم الشديد على الإطلاع ومعرفة كل ما هو قديم .

7- ازدياد الوعي في دور الآثار وأهميته في نمو المجتمع وتطوره .

8- الاهتمام المتزايد لوسائل الإعلام بنشر أخبار الحفريات والمعارض والاكتشافات الجديدة واللقى الغريبة.

ومنذ الخمسينات من القرن الماضي لوحظ ازدياد وتنامي اهتمام الإنسان بالتراث عامة، والآثار على وجه التحديد في كامل أنحاء المعمورة وفي الغرب على وجه الخصوص، نتيجة للتطور التكنولوجي، والتقدم العلمي، والازدهار الاقتصادي، الذي شهدته المجتمعات الغربية في ذلك الوقت، فكان من نتائجه الإيجابية، أن تعلق الإنسان أكثر من أي وقت مضى بالآثار، مما أدى إلى تنامي الحفريات والتنقيبات الأثرية العلمية، وتكاثر على إثر ذلك تجار العاديات في مختلف الأقطار الأوروبية، كما ازداد عدد المتاحف في العالم، وانتشرت قاعات العرض في العواصم الأوروبية، وخاصة في كبريات المدن الغربية، فاتحة بذلك المجال (في تنافس حاد) لإقامة معارض متخصصة ذات نوعية عالية، غايتهم في ذلك اجتذاب عدد أكبر من الزوار، وموازاة مع ذلك أنشئت المعاهد والأكاديميات والأقسام في مختلف عواصم ومدن الغرب، لدراسة وتطوير علم الآثار وعلم المتاحف.

(1) بشير زهدي، المتاحف سوريا دمشق، وزارة الثقافة،1988 ،صفحات 63-70.

وهكذا أحيطت المعالم التاريخية والمواقع الأثرية والمتاحف بهالة من العناية والاهتمام، وأصبحت بعيد فترة قصيرة من ذلك، تشكل المادة الخام للدراسات والبحوث في مختلف فنون العلم والمعرفة، ولا سيما في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فضلا عن الجانب التثقيفي والترفيهي، وما توفره للزوار من متعة وتسيح، بما تكتنزه هذه التحف والمعالم الأثرية من سحر جمالي، وأسرار معارفية، ولمسات فنية وجمالية بعضها يثير الدهشة من الغرابة والندرة، ساهمت وتساهم بصورة فعالة، في ترقية الذوق الفني السليم لدى تلك المجتمعات، فتشكلت لديهم رؤية جديدة، تختلف تماما مع تلك النظرة القديمة المبنية على أسس تجارية وتفاخرية بين التجار وهواة جمع التحف، حي كانت النظرة التعليمية مغيبة و لم يكن لها مكان في ذهنيات المجتمعات القديمة.

وبعد إدراكهم العميق لأهمية التراث الأثري كظاهرة ثقافية وكمنتوج حضاري ، له أبعاد تاريخية وتعليمية وترفيهية فضلا عن مردوده الاقتصادي، فتغير بذلك أسلوب تعاملهم مع التراث، الذي أصبح يقوم على مفاهيم وأسس حضارية جديدة، تتناسب وتتماشى والتغيرات الجديدة التي عرفها العصر، ومواكبة للتطورات والتحولات الاجتماعية والثقافية الحديثة التي عرفها المجتمعات الحديثة، حق لنا أن نسميها "ثقافة المتعة والتعلم".

على أن المتتبع لهذه التغيرات قديما وحديثا، سيكتشف بلا ريب أن هذه النظرة الحديثة قد انعكست بصورة إيجابية و مباشرة على التراث الأثري الثابت منه والمنقول، حيث أصبحت العديد من المواقع الأثرية والمتاحف في مختلف أنحاء العالم في وقت ليس بعيدا عن عصرنا هذا قبلة للزائرين والوافدين إليها من كل صوب وحدب، أفراد وجماعات، تختلف أعمارهم وتتباين ثقافاتهم وأجناسهم، لا لشيء إلا طلبا للفسحة والمتعة والتعلم، وشيئا فشيئا تحولت قبلة السياحة نحو الآثار بعد أن كانت موجهة، في السابق، نحو المعالم والمناظر الطبيعية، وبفضل ذلك تشكل ما أصبح يعرف في وقتنا الحاضر بثقافة "السياحة الأثرية" أو التسيح الأثري بدلا من التسيح الطبيعي. وأصبحت هذه المواقع بما في ذلك المتاحف أداة لتغيير المفاهيم القديمة وتهذيب الذهنيات البالية، ومكان تجمع تلتقي فيه مختلف الاتجاهات التي تتعلق إما بالثقافات أو بالقيم الاجتماعية، وهي إلى جانب كل ذلك تعمل على تقريب هذه الاتجاهات وجعل بعضها يستأنس البعض الآخر لتحقيق فكرة التعددية الثقافية وجعلها واقعا ملموسا بين مختلف الأمم والشعوب والطوائف المتعددة، في إجراء يهدف إلى نبذ ومحاربة التعصب

وبفضل ذلك، ارتقت مكانة المعالم التاريخية، والمواقع والمتاحف الأثرية، فتخلت عن دورها التقليدي، الذي كان يتمثل بصفة خاصة في الحفظ والصيانة بالنسبة للمتاحف أو المتعة والتعجب والاستغراب بالنسبة للمواقع والتحف الغريبة، واتسع هذا المفهوم إلى دور أكثر فعالية في بناء المجتمعات العصرية، وأوسع شمولية في تناول ومعالجة مسألة الثقافات وارتباطها بالفرد والمجتمع فصارت بذلك تشارك بصورة مباشرة وفعالة في التنمية المحلية من خلال ما تعرضه، أو ما تنقله هذه التحف من معلومات و معارف فضلا عن الاستمتاع الذهني والعاطفي التي تتركه في النفوس، من حيث كونها تعمل على نشر الوعي الثقافي، وتعليم المجتمع، وتساهم في ترقية البحث العلمي المتعلق بالآثار والفنون والتاريخ، إلى جانب دورها الاقتصادي، وما تدره من أموال يعاد استثمارها مرة أخرى في البحث العلمي والصيانة والترميم والتجهيز والسياحة ، تعود على المجتمع بالنفع والفائدة.

ولكي تتحقق كل هذه الأهداف النبيلة، يتعين على القائمين على التراث أن يعملوا على توفير جملة من الشروط نوجزها في ثلاثة محاور أساسية هي كالآتي:

1 – الدعاية الإعلامية:

إن الدعاية في عصرنا هذا هي أحد الركائز الأساسية للتعريف والإشهار، وانطلاقا من هذا المنظور يتعين تخصيص مساحات وفضاءات معتبرة في مختلف وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية– على وجه الخصوص– للدعاية والتعريف بالتراث الأثري في شكل ومضات إشهارية أو دراسات مبسطة في صورة مقالات في الجرائد والمجلات تتناول موقعا من المواقع الأثرية أو معلما تاريخيا أو متحفا من المتاحف بهدف التعريف به وتقريبه للجمهور الواسع، وغايتنا في ذلك هي تحسيس هذا الجمهور ودفعه لزيارة الآثار . فضلا عن تنشيط المطبوعات التعليمية والتعريفية التي تهدف إلى إبراز هذه الكنوز وإيصالها إلى السائح. ناهيك عن المعارض المؤقتة. على أن الدعاية لا تتوقف فقط عند هذا الحد، وإنما هناك وسائل أخرى لا تقل أهمية عن الإعلام من حيث التأثير النفسي على السائح وخاصة على مستوى موانئنا ومطاراتنا أو في مؤسسات الاستقبال كالفنادق والمطاعم وغيرها من الأماكن التي يرتادها السائح الأجنبي، الذي ينبغي أن يجد أين ما حل الصورة الحسنة والمعاملة الطيبة والاستقبال الجيد، لأن ذلك من شأنه تدعيم وتحسين الصورة العامة نجعل من هؤلاء سفراء لنقل الصورة الطيبة إلى مختلف أنحاء العالم، وبذلك يكون مثل هذا السلوك الحميد عاملا مساعدا في جلب وجذب أفواجا أخرى من السواح.

2 – التهيئة:

ويقصد بالتهيئة تحسين وضعية المواقع الأثرية والمتاحف، وذلك بإعداد وتحسين وتهيئة المحيط، بمرافق خدماتية عمومية، كهرباء، هاتف، تعبيد وشق الطرق، مقاهي، مطاعم، فنادق، محطات خاصة بتوقف السيارات، وأخرى لتوزيع البنزين وتقديم الخدمات المتعلقة بوسائل النقل في محيط المواقع التي توجد بالأماكن النائية، أروقة العرض، أماكن ترفيهية، مساحات خضراء للراحة والاستجمام، وسائل تسلية وترفيهية، محلات تجارية لعرض وبيع الصناعات التقليدية وأكشاك لبيع الأدوات التذكارية الأخرى كالطوابع البريدية والبطاقات التي تتعلق بالتحف الأثرية والمعالم التاريخية والمواقع الأثرية، والشرائح، والمجلات والمستنسخات أو المقولبات من التحف.

على أن يراعى في كل خطوة من هذه الخطوات شرط أساسي هو أن تنجز هذه الأعمال وفق دراسة علمية مبنية على أسس و مقاييس متعارف عليها في عالم السياحة الأثرية، تنسجم وتتفق مع شروط وأهداف منظمة اليونيسكو وسياستها في مجال ترقية وصيانة وحفظ التراث، بحيث يتجنب تشويه المنظر العام للمواقع الأثرية مع تحاشي قدر المستطاع إلحاق الضرر بها أو إحداث تلف بها أو بجزء منها، ويستحب أن يشترك فيها مختصون ومفتشون في الآثار.

3– التكوين:

يعتبر التكوين من العناصر الفاعلة في تنشيط وتفعيل النشاط السياحي. وقد يسأل سائلا ما دور التكوين في السياحة؟ والجواب بسيط، وليتصور كل منا أنه سائح يزور موقعا أو متحفا تاريخيا أو أثريا، ويجد نفسه يتجول وسط المعالم أو قاعات العرض بدون دليل ولا مرشد أو في أحسن الأحوال يجد نفسه مع حارس أو في أحسن الأحوال مع شخص لا يملك من المؤهلات العلمية والثقافية ما يؤهله للقيام بدور المرشد السياحي في هذه الأماكن التي تتطلب تكوينا خاصا وعاليا . فماذا سيكون تصرف السائح بعد أن يجد نفسه منهيا زيارته من دون أي استفادة وأي تحصيل علمي إذا ما استثنينا جانب المتعة. فالتكوين الجيد إذن للمرشدين وغير المرشدين كل في مجال تخصصه وكل في ميدان عمله سيساعد بلا ريب في نقل المعلومات الصحيحة للسائح بأسلوب علمي دقيق مبسط وجذاب. من شأن هذا العمل تزويدهم بمعارف ومعلومات مفيدة تشبع فضولهم وتجيب عن تساؤلاتهم العديدة. والشيء نفسه في ما يخص الطاقم الأمني والمكلفون بالاستقبال وغيرهم، فكل هؤلاء سفراء لبلدانهم بحكم احتكاكهم وتعاملهم المباشر مع السواح

والزوار الوافدين من مختلف الأقطار والمدن داخليا وخارجيا. وبذلك فالتكوين الجيد للطواقم الإدارية والعلمية والأمنية يضمن بالتأكيد نوعية العمل وتحسين وتنظيم الأداء وتهذيب السلوك والتعامل مع الغير ، فينتج عنه نتائجة جيدة تعود بالنفع والفائدة على الوطن. تظهر نتائجها في إبراز الوجه الطيب والمشرق للوطن، وفي تقديم ونقل المعارف الجيدة للسائح، مع المحافظة على التراث والحرص الشديد على صيانته من عبث العابثين الذين يمارسون تجارة التحف ويتنقلون في كل مكان بحثا على تحفة أو لقى أثرية يعودون بها إلى بلدانهم لبيعها بأثمان عالية في المزادات العلنية. من هنا تبدو أهمية التكوين الذي يهدف من بين ما يهدف إليه التعريف الجيد لتراثنا الحضاري ،والسهر على حفظه وصيانته من الأيدي المخربة.